

DOI: 10.54240/2318-012-003-013

الللصوصية القبلية وتداعياتها على علاقة المغرب بهولندا

خلال القرن التاسع عشر

**Tribal Banditry and its repercussions on Moroccan
Dutch relations during the Nineteenth Century**

اسم المؤلف: عبد الغني العمراني - Abdelghani EL AMRANI صص 253-266

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ باحث في التاريخ المعاصر- أكاديمية طنجة تطوان الحسيمة- المغرب.

البريد الإلكتروني: pr.ghaniho@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2022/06/27.. تاريخ المراجعة: 2022/07/15.. تاريخ القبول: 2022/09/11..

الملخص: شكلت للصوصية القبلية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر معضلة اجتماعية مستعصية أفضت مضاجع الحكام وأزقت بال المحكومين الذين لم يعد بمقدورهم ضمان الأمن لأنفسهم ولذويهم ولممتلكاتهم. وقد أسهمت الظروف الطبيعية الصعبة كالحقو، والجوائح، والأوبئة، وتدخل الأجانب الذين احترفوا تجارة المحظور خاصة تجارة السلاح في تأجيج جذوة للصوصية التي استشرى داؤها في جميع قرى ومدن المغرب الأقصى، واستعصى على المخزن المغربي الحد منها أو على الأقل التخفيف من وطأتها، وذلك بسبب ضعف إمكانياته الاقتصادية، وتداعي قواته العسكرية، وتدخل الأوروبيين في السياسة الداخلية والخارجية للبلاد، فأضحوا بالتالي يتحكمون بلا منازع في الشاذة والفاذة. ولما كان المغرب يرتبط بعلاقات تجارية مهمة مع هولندا خلال هذه المرحلة، فإن استفحال هذه الآفة الاجتماعية على نحو خطير في جميع مناطق البلاد كانت تُقلل من نشاطات التجار الهولنديين في المغرب لإدراكهم بأن ممتلكاتهم لم تعد في أمن وأمان كما في السابق، وكانت تضعه أيضاً في موقف محرج أمامدولة يرتبط معها بعلاقات تجارية ودبلوماسية وطيدة منذ ما يزيد عن خمسمائة قرن، الأمر الذي كان يخلف تداعيات جسيمة جداً ليس على الأمن العام وحسب، وإنما حتى على اقتصاد ودبلوماسية البلاد وسياساتها.

الكلمات المفتاحية: اللصوصية القبلية، المغرب، هولندا، التهريب، السلاح.

Abstract: Tribal Banditry in Morocco during the nineteenth century constituted a difficult social problem which has been annoyed the Rulers and troubled the People, who could not longer guarantee the Security of themselves, their families and their property. The difficult natural conditions, such as Droughts, Pandemics, Epidemics, and the interference of foreigners who professionalized the prohibited trade, especially Arms, contributed to fueling the Fervor of Banditry which its diseasespread in all the Villages and Cities of Morocco. Under this situation, the Moroccan Makhzen was unable to put an end of this serious social problem or at least to reduce its impact, due to its weak Economic capabilities, the collapse of its Military Forces, and the interference of Europeans in the Country's internal and foreign Policy, thus, they became in control of everything. As Morocco had an important commercial relations with the Netherlands during this period, the spread of this social scourge seriously in all regions of the country was reducing the activities of Dutch Merchants in Morocco, realizing that their property was no longer in safety as before, in addition, it was putting Morocco in an embarrassing situation in front of a country which it has had close commercial and diplomatic relations with It has had close Commercial and Diplomatic relations with it for more than five hundred centuries.

Keywords: Tribal banditry, Morocco, Netherlands, Smuggling, Weapons.

مقدمة: تعتبر اللصوصية ظاهرة تقليدية في تاريخ المغرب الاجتماعي، فقد شكلت جزءاً من الحياة اليومية على مرّ العصور، بيد أن وطأتها على العباد وأمن البلاد كانت خاضعة للمد والجزر، أي تبعاً لقوة أو ضعف السلطة المخزنية، فقد كان استفحالها في قرى ومدن المغرب الأقصى يتم غالباً زمن القحوط والمساغب، والأوبئة الفتاكة التي تأتي على اقتصاد البلاد، فيضطر معها الأفراد والقبائل بعينها إلى احتراف اللصوصية لضمان القوت اليومي. أمّا في القرن التاسع عشر فقد تبدل الوضع نسبياً، بحيث أسهمت الظروف الطبيعية الصعبة، وتدخل الأجانب في بروز ظاهرة اللصوصية، فالأولى تمثلت في وباء الطاعون الذي ضرب البلاد ما بين سنتي 1818-1820م، ومجاعة 1825-1826م¹، ووباء الكوليرا الذي اجتاح البلاد ما بين سنتي 1834-1835م، وكان المغاربة يسمونه عادة «بوقليب» و«بوكوييس»، و«الزراق» و«بو أزيويطة» و«مرض النفطة» و«الريح الأحمر»²، وعاد هذا الوباء مرة أخرى خلال سنوات 1854 و1859، 1860، 1895، 1896م³، وغير ذلك من الظروف

1- محمد الأمين اليزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. الأولى، 1992، ص. 104، 119.

2 - مصطفى الشابي، «حول جائحتي المجاعة والوباء في مغرب القرن التاسع عشر من خلال وثائق دقيقة» ضمن كتاب المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2002، ص. 331.

3 - محمد الأمين اليزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب...، صص 186-191، 322-340.

الطبيعة الحالكة التي دفعت بالمغاربة إلى البحث عن الموارد الغذائية بشتى الطرق الشرعية وغير الشرعية، بينما تجسّد تغلغل الدول الأجنبية فيانتزاع امتيازات تجارية وقضائية كثيرة من المخزن المغربي بمقتضى اتفاقيات ثنائية لتصبح البلاد في نهاية مطاف سوقا لترويج المنتجات الأوروبية، وقد استغل الأوروبيون هذا الوضع لممارسة تجارة التهريب خاصة تهريب السلاح الذي وجد فيه المحميون والمستوطنون الأجانب مكاسب مُغرية، لتعدد الزبائن واتساع دائرة التهريب، ومع انتشار السلاح في البلاد انتعشت معه ظاهرة اللصوصية بشكل رهيب، ومما كان يشجع على الانتشار الواسع لهذه الأسلحة عدم وجود جهاز إداري صارم قادر على مراقبتها والحد من استفحال خطر تهريبها، بسبب انفتاح المغرب على واجهتين بحريتين يصعب مراقبتهما، فكان المهربون يجدون سهولة كبيرة في إدخال الأسلحة إلى المراسي المغربية دون تكليف أنفسهم عناء تغليفها أو إخفاءها بشكل محكم لحجبها عن أنظار الأمناء. ولعب المحميون دوراً كبيراً في ذلك لما وجدوه من إقبال الزبائن من مختلف القبائل على اقتناء السلاح، كما ساهم تساهل بعض ممثلي المخزن بالمراسي مع المهربين في تسريب هذه الأسلحة إلى داخل البلاد، لما كان يتحقق لهم من عائدات مالية مهمة مقابل ذلك.

وقد بلغت درجة الإقبال على الأسلحة المهربة والأرباح التي كانت تدرها على المهربين حدّاً تحفيزياً هائلاً، استنتج منه بعض هؤلاء التجار المهربين أنه في إمكانهم كسب المزيد من الأموال بإبرام صفقات مع مصانع إنتاج الأسلحة في أوروبا، ومع ربانة بعض الشركات الملاحية الكبرى، وهو ما قام به بالذات بعض كبار المحميين، ومن ضمنهم محميين إيطاليين وبرازيليين مقيمين بطنجة، فكانت البواخر الأوروبية تحمل أعداداً كثيرة من الصناديق والخرطوش انطلاقاً من موانئ هامبورغ وأنشليس ومالقا وجبل طارق، وتفرغها قرابة نقط متفق عليها في عرض شواطئ الريف مثل حجرة النكوروبادس ورأس كبدانة ورأس الماء، أو على سواحل المحيط الأطلسي كطنجة والعرائش والمحمدية والصويرة ووادي نون وغيرها من السواحل الصحراوية¹.

1- محمد كنييب، المحميون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، دار أبي زرقان للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2011، ص216، 215.

ومن هذا المنطلق، سنعمد في هذه الدراسة على استجلاء واقع اللصوصية في مغرب القرن التاسع عشر وأثارها على بشكل خاص على العلاقات المغربية الهولندية بالاستناد أساساً إلى وثائق الأرشيف الوطني بلاهاي.

1- استفحال معضلة اللصوصية القبلية خلال القرن التاسع عشر: شهدت ظاهرة اللصوصية خلال القرن التاسع عشر استفحالا كبيرا مقارنة مع العهود السالفة، ويُعزى ذلك إلى كثرة اللصوص وجراثمتهم، وتوفرهم على الأسلحة العصرية، وانتشارهم في جميع مناطق البلاد، بحيث إن الأطراف أو ما كان يسمى بـ«بلاد السية»، وهي مناطق شهيرة بأعمال النهب والسلب، لم تعد تحتكر اللصوصية وحدها، وإنما أضحت تنافسها في هذا المضمار «بلاد المخزن»، التي كانت ملغومة باللصوص على طول المسالك التجارية حتى في أحواز المدن بما فيها الحاضرتان فاس ومراكش، ثم إلى المشاكل الجديدة التي طرحها ممتني اللصوصية أمام المخزن، فبالإضافة إلى أنهم أقضوا مضاجعه بتهديدهم الأمن العام، فإنهم تسببوا في نشوب أزمات دبلوماسية شائكة مع المفوضيات الأوروبية، لوجود جاليات أوروبية هامة في البلاد، ولانسلاخ عدد كبير من الرعايا المغاربة عن السلطة المخزنية ودخولهم تحت مظلة الحماية القنصلية، هذا فضلاً عن دور الكوارث الطبيعية والاضطرابات السياسية والأطماع الأوروبية في استفحال هذه الظاهرة الاجتماعية¹.

نتيجة للعوامل المذكورة، تردت الأوضاع الأمنية في البلاد بشكل خطير، مما كرّس أطروحة «الفوضى المغربية» التي ركزت عليها الكتابات الكولونيالية لتبرير غزو المغرب؛ فمن مظاهر تردي الأوضاع الأمنية في هذه الفترة أن أصبحت القوافل التجارية غير آمنة من هجمات القبائل في الطرق الرابطة بين تطوان وفاس، وأن أعمال النهب في أحواز فاس ومكناس أضحت أمراً معلوماً ومقرراً معروفاً، والأمر نفسه بالنسبة لأحواز المدن الشاطئية كمدينة الدار البيضاء على سبيل المثال، حيث تُقدّم لنا رسالة السلطان مولاي الحسن الأول إلى الحاج العربي بريشة التطواني بتاريخ 1 جمادى الأولى عام 1303هـ/5 فبراير 1886م مثلاً واضحاً عن تفاقم آفة اللصوصية بهذه المنطقة، فمما جاء فيها قول مولاي الحسن:

1- عبد العزيز التمساني خلو، «الظروف العامة للصوصية في مغرب القرن التاسع عشر ومشكلة الأمن بطنجة»، مجلة دار النيابة، نشر المطابع المغربية والدولية، طنجة، العدد الأول، السنة الأولى، 1984، صص 26-28.

«فقد بلغ لعلمنا الشريف أن السرقة والنهب تفاحش أمرهما هنالك حتى بلغ السيل الزُبى، واستوى في ذلك الهضاب والرُّبى، وصارت شرذمة من شياطين الإنس على ذلك مُتمادين، وإلحاداق الغصب والنهب والهجم والاختلاس مُقبلين، وعلى حصن الأسوار مُتسوّرين، لا يبالون برقيب، ولا يخافون سطوة قويّ وقاهرٍ رقيب، إذا فوق إليهم سهم الاستيصال المصيب كأنهم لبسوا من الأمن درعاً، وتفيّثوا من ظلال صرف المؤاخذه والضرب على أيديهم ملجئاً منعاً»¹.

ومدينة سلا الساحلية التياقتحما للصوص، وهاجموا المألح، ونهبوا اليهود، ولولا أنهم استغاثوا لأتى النهب على جميع أمتعتهم، ومدينة الصويرة التيتعرضت فيها القنصلية الإنجليزية للهجوم ثلاث مرّات، واستفحلت للصوصية في نواحي مدينة الجديدة بشكل خطير، وصار «السراق يأتون جماعة بخيلهم، ويضربون على الناس، ويأخذون أمتعتهم قهراً»².

وفي شمال المغرب اشتهرت بعض القبائل باحتراف أعمال السلب والسرقة، مثل قبيلة بني يدر المجاورة لتطوان، والتي كانت تمارس عملياتها ضد القوافل المارة بديارها الواقعة على بعد عشر كيلومترات من المدينة، وقد اشتدت هجماتها بصفة خاصة في بداية القرن العشرين³. وقبيلة بني عروس التي شقّت عصا الطاعة على المخزن الحسني، وأخذت تعتدي على ممتلكات القبائل المجاورة، وظل أفرادها متمادين في ممارسة اللصوصية إلى أن وجّه إليهم السلطان مولاي عبد العزيز الجيش في سنة 1902م «بقصد النزول عليهم والانتقام منهم، جزاءً لسعيهم في الأرض الفساد كغيرهم من قبائل الجبل»⁴. ولم يرحل عنهم إلا بعدما كسر شوكتهم وانقادوا إلى الطاعة، وبانقيادهم «دخل الرعب قلوب قبائل جبال الهبط كلها، وأذعنوا للأحكام وأداء الواجبات»⁵.

1- المرجع نفسه، صص.29-30.

2- محمد الأمين اليزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب.....، ص.310.

3- عبد العزيز التمسماي خلوق، «الظروف العامة للصوصية في مغرب القرن التاسع عشر.....»، ص.30.

4- محمد بن محمد المشرقي، الحلل الهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2005، ج.2، ص.267.

5- المصدر نفسه، ج.2، ص.268.

وكذلك قبيلة بني مستارة الجبلية، التي تزايدت غاراتها على مدينة وزان خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى كادت أن تكون سنوية في الفترة ما بين 1875 و1900م¹. ومن بين الأفعال المنسوبة إلى المستاريين الدخول بالسلح إلى الزاوية الوزانية، واختراق حرم الشيخ المؤسس مولاي عبد الله الشريف الوزاني، لأنَّ عُرْفَ زيارته يمنع ذلك، فهو حَرَمٌ مقدسٌ تُماثلُ أعرافه أعراف حَرَم مولاي إدريس بفاس، وحرم مولاي عبد السلام بن مشيش بجبل العلم، لا يقربه المخزن، ولا يطوف حوله، ولا يمشي فيه أحد بالنعال، ولا يحمل فيه السلاح، إلا أن بني مستارة تجاوزوا هذا النظام المتعارف عليه وسيطروا على مدينة وزان².

وقد سجل المستكشف الفرنسي ألفريد لوشاتولي في مؤلفه ملاحظات حول مدن وقبائل المغرب في سنة 1890 أن المستاريين شددوا الخناق على مدينة وزان في سنة 1885م، فقطعوا كل اتصال لها بمحيطها الخارجي لعدة شهور، نهبوا خلالها ممتلكات الأهالي والشرفاء، ولم تسلم من نهبهم حتى أضرحه شيوخ الزاوية، كما سبوا الفتيان والفتيات لبيعهم في الأسواق. وأنه على الرغم من إرسال السلطان مولاي الحسن حملتين عسكريتين لتأديبهم فإن خضوعهم لسلطته لم يكن سوى خضوعاً ظرفياً³.

وإلى هذا المعنى ذهب المؤلف الفرنسي أوغستموليراس في مؤلفه المغرب المجهول حينما تكلم عن هجمات المستاريين على هذه المدينة قائلاً إن «الشخص المستاري هو سيد المدينة، يتجول فيها بسلحه، ويتكلم بصوت عال، يُروّع ساكنتها دون تمييز بين الشريف والعامي واليهودي، يُسبي الفتيان والفتيات، ويذهب بهم إلى قبيلته لكي يبيعهم أو يسخرهم لخدمة أغراضه، فلا تمر سنة دون أن تُقدم فرقة من بني مستارة لنهب وزان، فكم من مرة نُهبَت

1- E.G.H. Joffé, «The Zāwiya of Wazzan: Relations between Shurafā' and Tribes at the advent of colonial occupation», in Jbala- Histoire et Société, Etudes sur le Maroc du Nord-ouest, Coordination Ahmed Zouggari et Jawhar Vignent-Zunz, Groupe pluridisciplinaire d'étude sur les Jbala, Editions du C.N.R.S, Paris, Wallada, Casablanca, 1991, p.264.

2- محمد عمراني، «الشرفاء الوزانيون والقبائل المجاورة لمدينة وزان أواخر القرن التاسع عشر»، ضمن كتاب علاقات المدن بالأرياف على الطرف الجنوبي لبلاد جبالة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى 1995، صص 36-37.

Alfred Le Chatelier, Notes sur Les Villes et Tribus du Maroc en 1890, Imprimerie A.Burdin, Angers, 1902, pp.22-23.3

هذه المدينة المقدسة وأحرقت من قبل هؤلاء الجيران المستأجرين الخطيرين، فلا جدوى من محاولة المدينة مقاومتهم، فدائماً ما كانت تبوء بالفشل»¹.

وفي نواحي طنجة العاصمة الدبلوماسية ومقر النواب الأجانب وأكبر جالية أوروبية بالمغرب كانت الفوضى ضاربة أطنابها من جراء اضطرابات الجيبيين، خاصة منهم أهل أنجرة، فقد كان هؤلاء ينزلون إلى أبواب المدينة ويعيثون فساداً ويختطفون حتى الصبيان، ومن تداعيات ذلك أن سادت موجة من الخوف الهلع في أوساط السكان المحليين خاصة منهم اليهود والنصارى².

أما في وسط البلاد فقد كانت قبائل الرحامنة لا تتردد هي الآخرى في شن غاراتها على مدينة مراكش وتنهب أسواقها، وترهب ساكنتها، وقد ذكر الناصري في هذا الصدد أن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان حينما كان «مشتغلاً بأمر الإصبيبول وحره على تطاوين ثار عرب الرحامنة بالحوز، وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش؛ فأغاروا عليه وانتهبوه، وسلبوا المارة وأرباب الجنات، وضايقوا أهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة، فانقطعت السبل وارتفعت الأسعار، وقطع الرحامنة ما حول الأسوار من الأشجار واحتطبوها، وحصدوا الزروع في الفدن واغتصبوها»³.

وظل عرب الرحامنة داخل مدينة مراكش يعيثون فيها الفساد إلى أن انتهى السلطان من حربه ضد الإسبان فتوجه إليهم، و«هجم عليهم، وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعة إلى مراكش مقرنين بالحبال حتى ضاقت بهم السجون»⁴، وقصد السلطان ذاته قبائل تادلا سنة 1872م بغية تأديبها بعدما شقت عصا الطاعة، واحترفت اللصوصية وقطع الطريق؛ «فأوقع بهم.....فقطعت منهم خمسين رأساً، وقبض على أربعين مسجوناً»⁵.

ونظم خلفه السلطان مولاي الحسن عام 1873م حملة ضد «أولاد يحيى فرقة من بني حسن، وكانوا قد ثاروا بعاملهم عبد القادر بن أحمد المحروقي؛ فهدموا داره وانتهبوها،

Auguste Moulieras, *Le Maroc inconnu*, Deuxième partie, Exploration des Djebala (Maroc Septentrional), Paris 1899, pp.469-1470.

2 - محمد الأمين اليزاز، تاريخ الأويمة والمجاعات...، صص309-310.

3- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، منشورات دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ج6، ص110.

4- المصدر والصفحة نفسها.

5- المصدر نفسه، ص123.

وعاثوا في الطرقات وأخافوها، فأوقع بهم السلطان المولى الحسن... وقعة كادت تستأصلهم وتأتي عليهم، فتشفعوا إليه وتطارحوا عليه، وأظهروا التوبة الخضوع فقبل توبتهم¹. ولم تكن أعمال اللصوصية محصورة في قبائل «السيبة» وحسب، وإنما امتدت لتشمل أيضاً «قبائل المخزن»، إذ يذكر شارل دو فوكو في معرض وصفه للطريق بين زاوية سيدي رحال وتيكيرت أنه بالرغم من أن «هذه المنطقة تقع في بلاد المخزن، فليس فيها ما يكفي من الأمان للسير بدون زطاط²، والأمر نفسه ينطبق على منطقة سوس فهي بالرغم من كونها «تنتهي حالياً إلى بلاد المخزن (يقول فوكو)، فهي تعرف عوائد مماثلة لعوائد بلاد السيبة، لا يغادر أحد القرى بدون أن يحمل السلاح، ولا يسافر أحد بدون زطاط... (ف) الطرق تعرف في بعض الأماكن أخطاراً أكبر من الأخطار التي تعرفها مناطق غير خاضعة للمخزن»³. والأمثلة في هذا الباب كثيرة أضربنا عنها اختصاراً.

وقد انخرط المحميون أيضاً في شتى أشكال النصب والاحتيال والسرقة والنهب وقطع الطريق والضرب والجرح والقتل وتكوين عصابات إجرامية، واستعصى على المخزن إيجاد الحلول اللازمة للحد أو على الأقل للتقليل من هذه الفوضى، ولم يتسن له في غالب الأحيان سوى مطالبة النائب السلطاني بطنجة بإثارة انتباه السفارات الأجنبية إلى تعرض القناصل على الأحكام، وإلى مخاطر تحيزهم السافر للفتح المنحاشين لهم⁴، ولم يكن المحمي يكتفي بالتعدي على أفراد منعزلين أو يهاجمهم بالصدفة، بل كان يفرض نفسه على قبيلته برمتها، ويتصرف وسطها تصرف الجبروت والطاغية⁵.

وباستفحال آفة اللصوصية بشكل خطير كما تقدمت الأوضاع الأمنية بالمغرب إلى «درجة أن رجالاً من كبار فقهاء الغرب الإسلامي لم يترددوا في إسقاط فريضة الحج على سكان المغرب تجنباً للإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وذلك بسبب تعذر طريق البر»⁶، وأضحى السفر من وإلى بعض المناطق الداخلية أمراً محفوفاً بالمخاطر، لذلك كانت القوافل التجارية

1- المصدر نفسه، ص. 135.

2- عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توفيق للنشر، ط1، 2009، ص. 41.

3- مرجع نفسه، صص. 41-42.

4- محمد كنيب، المحميون...، صص. 204-205.

5- المرجع نفسه، صص. 205-206.

6- عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق...، ص. 16.

تضطر دائماً إلى الاستعانة بـ«الزطاطة» لتأمين طريق وجهتها، والزطاطة مفهوم قديم له دلالاته التاريخية، ويُفيد ما يؤديه المسافر لمن يخفره ويحميه في الطرق غير الآمنة التي يرتادها اللصوص والقطاع، ويُستعمل فعل زطط كثيراً في العامية المغربية بمعنى الخبرة العملية، والقدرة على إيجاد المخرج المناسب في الظروف الصعبة¹، والجدير بالذكر أن «تزطيط» المسافرين القلائل كان يختلف دون شك عن تزطيط القافلة، كما قد يكون الزطاط رجلاً واحداً أو عدداً من رجال القبيلة، وإلى جانب النفوذ القبلي، تقوم حماية المسافرين والقافلة على النفوذ الديني، بحيث كان يضطر المرء إلى الاستعانة بزطاطين ينتمون إلى زوايا معينة أو وسط الشرفاء، ومعلوم أن خريطة المحاور التجارية ومراقبة الطرق كانا من بين أهم المرتكزات التي قامت عليها الرباطات والطوائف الدينية².

2- اللصوصية وتداعياتها على العلاقات المغربية الهولندية: تُطالعنا وثائق الأرشيف الوطني بلاهاي بأمثلة كثيرة عن سيادة اللصوصية خلال القرن التاسع عشر، وتداعياتها على أمن المغرب وهولندا، ومحاولة البلدين تطويق هذه الظاهرة، والحد من وطأتها على الأفراد والجماعات. وتتوزع هذه الأمثلة من حيث طبيعتها إلى حالات فردية وأخرى جماعية، ومن حيث مكان وقوعها إلى حالات داخلية وأخرى خارجية.

فقد رفع القنصل العام الهولندي كارلوس نيسن³ (A. Charles Nijssen) شكاية إلى القائد أحمد بن محمد السوسي في سنة 1817م حول تعرض التجار الهولنديين بمرسى طنجة للسرقة من قبل حراس المرسى، الذين سلبوهم بعض السلع التجارية التي كانت مُعدّة للتوزيع بالسوق المغربية، مثل السكر والكافور والبُن، طالباً منه البحث في هذه النازلة والقيام بما يلزم من الإجراءات لإلقاء القبض على اللصوص وإعادة السلع المنهوبة إلى أربابها، بيد أن القائد المذكور لم يفلح في الوصول إلى الجناة، وبرر عجزه بكون هذه النازلة لا تعدو أن تكون مجرد وشاية كاذبة، حيث أكد ذلك بقوله: «وما ذكرت لنا... أن العساسة

1- المرجع نفسه، ص.17.

2- المرجع نفسه، صص37-38.

3- شملت فترته بالمغرب كقنصل عام عن جنس الفلامنك عهد السلطان مولاي سليمان وبضع سنوات من عهد السلطان مولاي عبد الرحمان. وكانت له يد بيضاء في تصفية عدد من القضايا الشائكة التي طفت على الساحة السياسية المغربية الهولندية أبرزها قضية هجوم البحرية المغربية على المراكب الهولندية سنة 1817م وما ترتب عنه من خسائر مادية وبشرية جسيمة. انظر رسالته إلى السلطان مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله، بتاريخ 22 ربيع الأول 1232هـ/1817م بالأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830، رقم 7.

الذي بالقطارمة سرقوا منهم السُّكَّر والكاكاو والقهوة، إعلم وأني الساعة الذي وصل لنا كتابك أَقُومْتُ أنا بنفسِي وَرَسَلْتُ للبلوط الهاربين، وبحثُّ على هذه الخيانة الذي وقعت بلقطارمة في مرسى سيدنا نصره الله، فبذلك لم نجد صح، وجدتُ العَسَّاسَ كلهم باقين في القطارمة على محلهم كيف أبقاهاهم رايستهم المعطي، رجل من أهل الرباط ورجل من أهل أزيللة ورجل من أهل طانجة، ولا يتصرف أحدٌ معهم في القطارمة، وقالوا كل ما دفع لهم رئيسهم المعطي فهو في ذمتهم، هما الذي أخذوه بالذي يخصهم، وهذا ما وجب علينا نُعلمك به»¹.

كما كانت ممتلكات المحميين الأوروبيين والهولنديين بوجه خاص هدفاً لمحتري للصوصية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحيث كانت بعض القبائل في شمال المغرب تترىص بمنازل المحميين، كقبائل الفحص وجباله التي كانت تعترم الإغارة على مدينة القصر الكبير، بيد أن التدابير الاحترازية التي سلكها المخزن حالت دون ذلك، فانتظرت ظروفاً مواتية جديدة وانهزت الفرصة للهجوم على القصر الكبير عام 1892م، فتسربوا إلى داخل المدينة دون أن يتعرض لهم الحراس وأغاروا على دارمحي فرنسي، وهو مسلم ثري، وكسروا أبوابها وانتقموا منه محدثين بهجومهم ضجة كبرى ليس داخل المغرب وحسب بل حتى في الأوساط الفرنسية².

وتخبرنا رسالة نائب دولة هولندا بطنجة الكونت غراف فون طاطنباخ (Graaf Von Tattenbach) إلى النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرَّيس في دجنبر 1895م بقضية المحمي الهولندي المخازني عبد الرحمن بن أحمد الحساني، الذي تعرضت مداخله الزراعية للسرقة من قبل بعض لصوص قبيلة عبدة، والتي قُدِّرَت قيمتها بألف وأربعمائة وواحد وتسعين (1491) ريالاً، إذ يذكر الكونت طاطنباخ (Tattenbach) أن «أناساً من آل الشراشمة والمدورة في إيالة القائد الحاج العربي بن ثامر بعبدة، وأناساً أيضاً من الاكباله

1- من رسالة القائد أحمد بن محمد السوسي إلى القنصل العام الهولندي كارلوس نيسن، بتاريخ 6 محرم سنة 1232هـ/1817م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830، رقم 40.

2- محمد كنيب، المحميون...، ص. 209.

3- غراف فون طاطنباخ (Graaf Von Tattenbach) (1846-1909م) دبلوماسي من أصل ألماني مثَّل هولندا وبلاده ألمانيا في المغرب، بوصفه وزيراً مفوضاً مقيماً ابتداءً من سنة 1889م، ثم بصفة مبعوث فوق العادة لدى السلطان مولاي عبد العزيز. إبراهيم بوطالب، مادة «طاطنباخ فون كريستيان»، في معلة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ج 17، 2003، صص 5677-5679.

واتوالط من إيالة القائد عيسى بن عمر، قد نهبوا وسرقوا إلى عبد الرحمن بن أحمد الحساني مخازني ويس قنصلات دولة هولاندة في آسفي المسائل الآتية وهي: ثلاثة مطامر داخلها 195 حمل جمل من القمح...، و50 حمل من الشعير...، و36 خُرُوبَة من الذوان...، و10 أحمال من الفول...، و25 حمل من القمح والشعير...، جُملة 1491 ريال، وغير ذلك من الحوائج»¹.

وقد طلب الكونت طاطنباخ(Tattenbach) من النائب السلطاني الطريس أن يُسلِّمه «كتاباً إلى القائد الحاج العربي بن ثامر، وكتاباً آخر إلى القائد عيسى بن عمر، لكي يلزموا الأناس المذكورين أن يَرُدُّوا ما نهبوه وسرقوه للمخازني المذكور، أو خلاص القدر المعلوم أعلاه»، مُعلِّماً إيَّاه بأنَّ في حوزته رسوماً «حقَّانية وشرعية...تثبتُ العمل»².

كما تفيدنا وثائق الأرشيف الهولندي بمعطيات هامة عن تنظيم المخزن العزيزي حملات تأديبية ضد أعمال اللصوصية التي كانت تقوم بها بعض القبائل الجبلية في شمال المغرب، وهي حملات عسكرية أبطنت أبعاداً متعددة، إذ أنها دلت على «تأكيد الوجود المخزني وتقريب كاريزماتية السلطة، وتوجيه إشارات العز والصلوة لأعداء الخارج وتمردات الداخل»³، وعبَّرت في الوقت نفسه عن «سلطته الرمزية من خلال التعريف بقوة الآلة السلطانية، وبقدرتها على اقتحام فضاء المحكومين أو على الأقل إيهامهم بذلك»⁴، لذلك لا يمكن اختزال وظيفة هذه الحملات في مجرد تحرك مخزني لتأديب القبائل «السائية» وإرغامها على الطاعة، بل إنها تجسيد لحضور مخزني في شكل عاصمة متحركة للسلطان تندفع داخل القبائل بهالة وهيبة مستمدة من حجمها وعددها وعدتها وقت تحركها، ومن شكل تموضعها وهندسة مقامها لحظة حلولها⁵.

وهي وثائق وجَّهها النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس إلى ممثلي دولة هولندا بطنجة ما بين سنتي 1903-1905م؛ فمن هذه الوثائق رسالة بعث بها إلى القنصل العام

1- من رسالة الوزير المفوض لدولة ألمانيا ونائب دولة هولندا بطنجة الكونت كراف فون طاطنباخ إلى النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 4 دجنبر 1895م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 44.

2- الرسالة نفسها.

3- يحي بولحية، «المخزن في مغرب القرن التاسع عشر ناطراً ومنظوراً إليه»، في مجلة عمران، العدد السادس، خريف 2013، ص 177.

4- محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2011، ص 198.

5- الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب 1880-1915م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. الأولى 2011، ص 154.

البارون فريدريش فون منتسينغن¹(Friedrich vonMentzingen)، بتاريخ 17 شوال 1320هـ/ 18 يناير 1903م، يخبره فيها بـ«ما صدر من أهل مداشر الفحص من الزيف والانحراف والفساد وقلة المروءة، وبما وقع من العزم على تربيتهم وإعمال المتعین في حقهم»²، طالباً منه أن يُعلم التجار والمحميين الهولنديين بتصفية معاملاتهم التجارية مع أهل منطقة الفحص حتى لا تتعرض للخسارة والضياع قائلاً: «وأعلمناكم لتأذنوا تجاركم ورعاياكم بحيازة ما عسى أن يكون لهم عندهم»³.

ورسالة أخرى وجهها إلى القنصل المذكور بتاريخ 28 صفر سنة 1321هـ/ 27 ماي 1903م، يُعلمه فيها بأن «ما عزم عليه المخزن الشريف من تربية أهل الفحص قد صدرت الأوامر الشريفة للمحلة التي بالقصر بتخييمها بسكُدلة، بين العقبة الحمراء وعين الدالية، بقصد إعمال اللازم في القبائل الجبلية، من نواحي القصر إلى طنجة وتطوان، وتأمين الطرقات، وها هي في الأثر واردة لأجل ذلك، وأعلمناكم -يقول الطريس- لتكونوا على بال»⁴.

ويبدو أن هذه الحركة التأديبية لم تحقق أهدافها في القضاء على مظاهر «الزيف والفساد» واللصوصية التي استشرى داؤها في قبائل الشمال الغربي، لذلك قرر السلطان مولاي عبد العزيز تجنيد حركة عسكرية جديدة ضد هذه القبائل «السائبة» في السنة التالية، كما يبدو ذلك من رسالة النائب السلطاني محمد الطريس إلى نائب أشغال دولتي ألمانيا وهولندا بطنجة الدكتور ريشارد فون كولمان⁵(Richard vonKühlmann) بتاريخ 15 ذو القعدة 1322هـ/ 23 يناير 1905م، التي يُخبره فيها بمثل ما أُخبرَ به سلفه القنصل منتسينغن(Mentzingen)، من عزم المخزن على تربية المفسدين من سكان نواحي طنجة وتأديبهم، وإعلام تجار بلاده ومحميها ومخالطيها بهذه النواحي بشأن الحركة السلطانية

1- فريدريش فون منتسينغن(Friedrich vonMentzingen) (1858-1922م)، المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا خلال الفترة الممتدة ما بين 1899-1904م.

2- من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس إلى الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة البارون فريدريش فون منتسينغن، بتاريخ 17 شوال 1320هـ/ 18 يناير 1903م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

3- لرسالة نفسها.

4- من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس إلى الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة البارون فريدريش فون منتسينغن، بتاريخ 28 صفر 1321هـ/ 27 ماي 1903م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

5- الدكتور ريشارد فون كولمان(Richard vonKühlmann). دبلوماسي ألماني، تقلد مهمة نائب أشغال دولتي ألمانيا وهولندا بطنجة منذ بداية سنة 1905م. ولد بالقسطنطينية يوم 3 ماي عام 1873م، وتوفي بمدينة أولسباد بألمانيا يوم 16 فبراير عام 1948م.

ليكونوا على بال من مصالحهم التجارية ثمة قائلاً له: «فقد اقتضى النظر الشريف توجيه محلة لنواحي طنجة بقصد تأمين الطرق وإصلاح أحوال هذه النواحي وتربية المفسدين، وأمرنا بتقديم الإعلام لكم لتعلموا تجاركم ومن هو إلى نظركم بحيازة ما عسى أن يكون لهم في هذه النواحي من المتاع هذراً من الآفات وفق الشرط، وعليه، فالمؤمل من رفيع جنابكم أن تعلموا من ذكر وتسترعوا عليهم في ذلك»¹.

وفضلاً عن منطقة شمال المغرب، تفيدنا وثائق الأرشيف المذكور بمعلومات عن توجيه السلطان مولاي عبد العزيز قوة عسكرية للحد من تفاقم الوضع الأمني بأحواز الدار البيضاء، حيث نقرأ في رسالة أحمد بن محمد بن العربي الطريس إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة الدكتور فريدريش رُوزن² (Friedrich Rosan)، بتاريخ 3 صفر 1324هـ/ 30 مارس 1906م بأن السلطان المذكور قد أصدر أمره «لكبير المحلة الحوزية مولاي الأمين بأن يُعلم القناصل بالدار البيضاء على يد نائب عاملها بما عزم عليه من إجراء التربية على قبيلة زناتة (إحدى قبائل الشاوية) بعد أجل قدره شهر كامل من تاريخ الإعلام ليحوز في خلاله تجارهم ما عسى أن يكون لهم عند أهل تلك القبيلة من أمور المخالطة»³. ويختم الخليفة رسالته بقوله: «فأعلمناكم بذلك لتكونوا منه على بالٍ، وتأذنوا قنصلكم هنالك بالإجراء على ما ذكر»⁴.

وعلى الرغم من تحذير المخزن العزيمي ممثلي دولة هولندا من مغبة تعرض مصالح تجارهم وممتلكات رعاياهم للضياع بفعل حركات تأديب القبائل الجامحة فإن هؤلاء الممثلين لم يأخذوا تنبيه المخزن وتحذيره لهم على محمل الجد، ويسارعوا إلى إعلام تجار بلادهم بحيازة ما عسى أن يكون لهم من أمور المخالطة مع أهالي تلك القبائل، وإنما ظلوا يُحمّلون المخزن مسؤولية حماية رعاياهم ومصالحهم التجارية خلال عملياته التأديبية، كما يظهر ذلك من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس إلى نائب أشغال دولتي

1- من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطريس إلى نائب أشغال دولتي ألمانيا وهولندا بطنجة الدكتور ريشارد فون كولمان، بتاريخ 15 ذو القعدة 1322هـ/ 23 يناير 1905م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

2- الدكتور فريدريش رُوزن (Friedrich Rosen) مستشرق ودبلوماسي ألماني، ولد بمدينة ليزنغ بألمانيا في 30 غشت سنة 1856، تقلد مهمة الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة منذ سنة 1905، وأصبح وزيراً لخارجية دولته في عام 1921. توفي بمدينة بكن بالصين في 27 نوفمبر عام 1935.

3- من رسالة أحمد بن محمد بن العربي الطريس خليفة النائب السلطاني إلى الوزير المفوض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندا بطنجة الدكتور فريدريش رُوزن، بتاريخ 3 صفر 1324هـ/ 30 مارس 1906م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

4- الرسالة نفسها.

ألمانيا وهولندا بطنجة الدكتور كولمان (Kühlmann) بتاريخ 24 ذو القعدة 1322هـ/2 فبراير 1905م التي جاء فيها: «وصلنا كتابكم المؤرخ في 18 من الشهر الجاري جواباً عما قدّمناه لكم من اقتضاء النظر الشريف توجيه محلة لهذه النواحي لتأمين الطرقات وتربية المنحرفين، مُعلمين بأنكم أخبرتم تجاركم بما كتبناه لكم، غير أنكم ذكرتم أن المسؤولية لا تزال على جانب المخزن إلى آخر ما شرحتم وصار بالبال»¹. مع أن المخزن لم يكن يهدف في حقيقة الأمر من تحذيره المتقدم الذكر سوى إلى تبرئة ساحته مما قد يترتب عن حركاته العسكرية ضد القبائل المنحرفة من خسائر وأضرار في ممتلكات الرعايا الهولنديين ومخالطهم. وهذا ما أكده النائب السلطاني محمد بن العربي الطرّيس بقوله: «فغير خافٍ ما أنهيناه لجماعة النوّاب المُحيّين من أن فائدة تقديم جانب المخزن الاسترعاء على التجار بواسطة نواب دولهم هي التقصّي من دَرَك ما عسى أن يتوقع والتبرّي من عهده، حيث أُنذره (السلطان) أوّلاً قبل الشروع في تربية أهل النواحي المنحرفين»².

خاتمة: وهكذا، نستخلص مما تقدم، أن ظاهرة اللصوصية عرفت تطوراً ملحوظاً إبان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لتفشي دائها العضال في قبائل مختلفة من المغرب، وذلك بسبب تضافر عوامل داخلية وخارجية، فاتخذت أشكالاً متعددة، وأُثِّق بالسلطين، وزادت من تعميق الأزمة الداخلية، واتُّخذت إحدى المبررات الأساسية للتدخل في شؤون البلاد وغزوها بدعوى إنهاء حالة السببية والانقسام، وإعادة الأمن والاستقرار إلى المجتمع والدولة. وكانت هولندا كما رأينا من الدول الأوروبية التي تأثرت مصالحها التجارية بأعمال اللصوصية والانحرافات القبلية في مناطق مغربية عديدة. وبذلك يمكن القول إن اللصوصية تعتبر في واقع الأمر ثابتاً من ثوابت الأزمة في العلاقات المغربية الأوروبية خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة.

1- من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطرّيس إلى نائب أشغال دولتي ألمانيا وهولندا بطنجة الدكتور ريشارد فون كولمان، بتاريخ 24 ذو القعدة 1322هـ/2 فبراير 1905م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.

2- الرسالة نفسها.

DOI: 10.54240/2318-012-003-015

تداعيات السياسة الإستعمارية على الوضع المعيشي للجزائريين

من خلال جريدة النجاح القسنطينية (1924-1934)

The repercussions of the colonial policy on the living situation
of Algerians through the Constantine An-Najah newspaper (1924-
1934)

اسم ولقب المؤلف المرسل: سبيحي عائشة- sbihi aicha صص 267-284

الدرجة والعنوان المهني: أستاذة محاضرة أ- المركز الجامعي مرسلتي عبد الله- تيبازة- الجزائر.

البريد الإلكتروني: sbihiaicha1@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2022/06/07.. تاريخ المراجعة: 2022/07/15.. تاريخ القبول: 2022/11/05

الملخص: تعالج هذه الدراسة الاهتمام الإعلامي لجريدة النجاح بالظروف المعيشية للأهالي الجزائريين خلال الفترة ما بين سنتي 1924-1934، التي تميزت بالكارثية من غلاء المعيشة وانتشار البطالة، والمجاعة والفقر المدقع، وانتشار الأمراض، ولم تتوان في انتقاد التجار المستوطنين والرأسماليين الكبار المحتكرين للإقتصاد الجزائري على استغلالهم الفاحش للجزائريين عن طريق الإحتكار والمضاربة بالمواد الغذائية الإستهلاكية، وحملت الجريدة فرنسا مسؤولية معاناة الجزائريين خلال هذه الفترة من خلال إدارة ظهرها لهم، وانحيازها المفضوح للمستوطنين الأوروبيين، ودعمهم بكل الإمتيازات الضرورية لتكريس هيمنتهم على ثروات الشعب الجزائري واستعباده. وبالمقابل دعت الجزائريين إلى التعاون والتكافل فيما بينهم للاستثمار في المشاريع الفلاحية والتجارية، والتضامن فيما بينهم لمحاربة الفقر والأمراض عن طريق تفعيل عمل الجمعيات الخيرية، وتشجيع تعليم الأطفال حتى لا يقعوا فريسة لاستغلال التجار والرأسماليين المستوطنين.

الكلمات المفتاحية: جريدة النجاح، المجتمع الجزائري، المستوطنون، السياسة الإستعمارية، الأزمة الإقتصادية العالمية (1929)، المجاعة، البطالة، الفقر، الصحة، التعليم، الأطفال.

Abstract: This study deals with the media interest of Al-Najah newspaper in the living conditions of the Algerian people during the period (1924-1934), which was characterized by the catastrophic high cost of living and the spread of unemployment,

famine, extreme poverty and the spread of diseases among them. The obscenity of the Algerians through monopoly and speculation in consumer foodstuffs, and the newspaper held France responsible for the suffering of the Algerians during this period by turning its back on them, and its apparent bias towards the European settlers and supporting them with all the necessary privileges to establish their dominance over the wealth of the Algerian people and their enslavement. On the other hand, she called on Algerians to cooperate and cooperate with each other to invest in agricultural and commercial projects, and to unite among themselves to fight poverty and diseases by activating the work of charitable societies, and encouraging the education of children so that they do not fall prey to the exploitation of merchants and settler capitalists.

Keywords: Al -Najah newspaper, Algerian society, the settlers, colonial policy, The global economic crisis of 1929, the famine, The unemployment, the poverty, the health, the education, the children.

مقدمة: تمثل جريدة النجاح الجزائرية لصاحبها عبد الحفيظ الهاشمي، والصادرة بمدينة قسنطينة خلال فترة 1919-1956؛ مادة تاريخية مصدريّة هامة، يمكن توظيفها في إثراء كتابة تاريخ الجزائر المعاصر عامة؛ والتاريخ الاجتماعي خاصة، سيما وأنها- الجريدة- تعد أطول الجرائد العربية الجزائرية عمرا، بحيث ظلت تصدر طيلة الفترة المذكورة أنفا، دون أن يطالها التعطيل، ويعزى ذلك إلى خطها الفكري والإعلامي المهادن للإستعمار، مما مكّنها من مواكبة مختلف الأحداث المحلية والدولية، كما أظهرت اهتماما منقطع النظير بأوضاع الجزائريين العامة، بخاصة المتعلقة بالظروف المعيشية المأساوية التي مروا بها خلال عشرينية 1924-1934 في ظل السياسة الإستعمارية المفروضة عليهم، وما تميزت به من جور وحيف وسلب لحقوقهم من جهة، وتدعيم منقطع النظير للمستوطنين الأوروبيين في اغتصاب ثروة الشعب الجزائري واستغلاله الفاحش في شتى مجالات الحياة من جهة أخرى.

تتمحور الإشكالية الرئيسة للمقال حول مدى موضوعية جريدة النجاح في تصوير الظروف المعيشية المأساوية للأهالي الجزائريين خلال هذه الفترة، وتندرج ضمن الإشكالية المحورية التساؤلات الآتية: ما هو موقف جريدة النجاح من هذه الظروف؟ ما علاقة هذه الأوضاع بسياسة فرنسا الإستعمارية، وخلفيات ذلك؟ وما هي نظرتها لطبيعة علاقة المستوطنين بالأهالي الجزائريين؟ وما هي الحلول التي اقترحتها لتحسين ظروف الجزائريين الاجتماعية؟

منهج الدراسة: سيتم الاعتماد أساسا في إنجاز هذه الدراسة على أعداد جريدة النجاح الصادرة خلال فترة 1924-1934، المتوفرة في شكل ميكروفيلم، وقرص مضغوط بالمكتبة

الوطنية بالعاصمة، وذلك من خلال القيام بعملية المسح، وتوظيف منهج تحليل مضمون المقالات، وغيرها من القوالب الصحفية المعالجة لهذا الموضوع، مع الاستشهاد بمقتطفات من المقالات كمستندات علمية موضوعية للتدليل على موقف الجريدة.

1- التعريف بجريدة النجاح: تعد النجاح من أبرز الصحف العربية الجزائرية، وهي جريدة إخبارية أسسها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي¹ بمدينة قسنطينة في 11 أوت 1919²، حملت شعار: "جريدة حرة أسبوعية مباحثها العلم والتهديب والأدب والسياسة"³، صدرت في بادئ الأمر بصفة أسبوعية ونصف أسبوعية⁴، ثم تحولت إلى جريدة يومية ابتداء من سنة 1930⁵، وكثيرا ما كانت الجريدة تؤكد على أهداف رسالتها الإعلامية، والتي حددتها في "نشر الفضيلة، والحث على جمع الكلمة، والتحلي بالأخلاق الكريمة، والدعوة إلى الحق الذي هو أحق أن يتبع؛ فخدمت المسائل الدينية، وخاضت في ميدان السياسة التي تعود على أبناء الشعب بالنفع"⁶، وأنها تسعى دائما إلى إسعاد "الأمة الإسلامية الجزائرية، وتحقيق ما تصبو إليه من رقي وحقوق ضمن ما بها من قومية تكفلها العربية ويحميها الإسلام الحنيف، ورفاهية العالم الإسلامي. سياستنا هي سياسة وثام ووفق ودفاع"⁷.

كما أكدت النجاح على تبنيها للقضايا الوطنية رغم تدمير الإدارة الاستعمارية من هذا الاهتمام، واعتبارها خطأ أحمر لا ينبغي تجاوزه للحيلولة دون تأجيج الوعي الوطني لدى الجزائريين، وقد عبرت الجريدة عن هذا الموقف بقولها: "... كل ذلك لا يمنعنا أن نقف موقفا صريحا لا غبار عليه تجاه كل المسائل السياسية والاجتماعية التي تهتم وطننا هذا أو

1- ولد بطولقة عام 1895، حفظ القرآن ودرس بزواوية أسلافه بنفس المنطقة، ثم واصل تعليمه بجامع الزيتونة سنة 1911، عاد إلى الجزائر

سنة 1919، واهتم بالعمل الصحفي داعيا من خلاله إلى إصلاح أحوال المجتمع الجزائري في ظل سياسة المسخ الاستعمارية المستهدفة له، توفي يوم 11 أوت 1973. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص 428.

2- عبد الحفيظ الهاشمي، "دخول النجاح في عامه الثالث عشر"، النجاح، العدد 1199، 1931/08/23، ص 1.

3- أنظر على سبيل المثال العدد 127، 1923/09/28، ص 1.

4- محمد ناصر، المرجع نفسه، ص 82.

5- عبد الحفيظ الهاشمي، "النجاح يتقدم للشعب بأول عدد من عهده اليومي"، النجاح، العدد 831، 1930/1/4، ص 1.

6- النجاح، "النجاح في عامه الثالث عشر"، النجاح، العدد 1199، (1931/08/30)، ص 1.

7- النجاح، العدد 1473، 1933/08/11، ص 1، نقلا عن: محمد يعيش، كبرى اهتمامات جريدة النجاح القسنطينية (1919-1956)، رسالة

ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2002، ص 99.

يهم أبناء الوطن الاطلاع عليه... ونحن من جهة الحكومة تطالب بالحقوق لأمتنا المسكينة، لا نريدها حقوقا ناقصة، ولا نريدها حقوقا بتراء، بل نريدها حقوقا كاملة...¹.

ضمت الجريدة أقلاما إعلامية نيرة أسهمت بفعالية في إكسابها صدى واسعا محليا وعربيا، نذكر منها على سبيل المثال- لا الحصر- عبد الحفيظ الهاشي مؤسس الجريدة وصاحب امتيازها، إسماعيل مامي رئيس تحرير الجريدة، مولود بن الصديق الحافظي الأزهري، الشاعر محمد الصالح خبشاش، والعربي التبسي، كما ساهم الشيخ عبد الحميد بن باديس بالكتابة فيها خلال المرحلة الأولى من ظهورها.²

اعتبرت النجاح من أحسن الصحف الأهلية الجزائرية الناطقة باللغة العربية من حيث الإخراج الشكلي، وثراء المادة الإعلامية وتنوعها، بحيث كانت حافلة بالأخبار السياسية والأحداث المختلفة التي كانت تشهدها الساحة الوطنية³ والدولية، سيما المتعلقة بالأزمات الدولية التي مهدت لقيام الحرب العالمية الثانية⁴، وقضايا التحرر العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، التي تابعت مختلف تطوراتها بشكل مستفيض، وأبرزت مناصرتها لها.⁵

هذا إضافة إلى المقالات الأدبية والتعليمية والتربوية والدينية والاجتماعية والثقافية⁶، كونها كانت تحوز مصادر إعلامية ومعلوماتية متنوعة، مثلتها بالدرجة الأولى الصحافة الكولونيالية بشقها الرسمية والاستيطانية الصادرة بالجزائر، والصحافة الأوروبية كالبريطانية والفرنسية، وحتى الأمريكية، إضافة إلى الصحافة المصرية والعراقية والسورية والتونسية والمغربية.⁷

1- النجاح، العدد 1473، 1933/08/11، ص1، نقلا عن: محمد يعيش، المرجع السابق

2- نفسه، صص 16-26.

3- محمد ناصر، المرجع نفسه، ص82.

4- أنظر على سبيل المثال: أعداد: 2331 (1939/9/9)، 2333 (1939/9/14)، 2335 (1939/09/19)

5- لاستزادة في الموضوع، راجع: محفوظ تاونزة، قضايا المشرق العربي السياسية والتحررية في الصحافة العربية الجزائرية (1920-1956)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2012، صص 112-402.

6- محمد ناصر، المرجع السابق، ص82.

7- للمزيد أنظر: تاونزة محفوظ، وعائشة سبيعي، "صدى المقاومة الليبية في الصحافة العربية الجزائرية"، جريدة النجاح (1924-1931)، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 36، (2019)، صص 249-251

استعانت النجاح بجهاز تلغراف والهاتف لرصد الأخبار وتتبع الأحداث¹، ومراسلين خاصين بها في مختلف أرجاء البلاد وفي فرنسا² وتركيا، وفي بعض بلدان العالم العربي كمصر وتونس والمغرب³، وكان لها مكتبة خاصة بها ضمت العديد من الكتب التاريخية والعلمية والمعرفية⁴. وأصبحت عضوا في وكالة الأنباء العالمية (هافاس)، الأمر الذي مكّنها من مواكبة الأحداث محليا ودوليا، وكسب عدد معتبر من القراء في مختلف أرجاء الوطن، ويتجلى ذلك من خلال عدد النسخ المسحوبة يوميا، التي قدرت بحوالي 5000 نسخة سنة 1930م⁵، حيث كانت توزع في المغرب وتونس وفي المشرق العربي كمصر، أين حظيت بسمعة إعلامية كبيرة في أوساط النخبة المثقفة، فنذكر في هذا الصدد ما كتبه أبو عبد الله (من تلامذة جامع القرويين) عن صدى النجاح بالمغرب قائلا: "... فجريدة النجاح هي جريدة العلماء والمفكرين والكتاب والشعراء، فإنها لا تبغي للعلم إلا انتشارا، وللدأب إلا رواجاً ولل فكرة استنارة، كل هذا يثبت لديك أنها القاريء الكريم من المباحث الراقية والمواضيع العالية والأفكار التي يطرقها كتابها الأحرار ورجالها الإعلامية؛ فهي جريدة الشعب الصادقة التي تخدم الأمة، و تحافظ على كيانها وشرفها، وتهدي إليها ما لذ وطاب من الفوائد الجمّة..."⁶.

وبسبب خطتها الإعلامي "المهادن للإستعمار" تمكنت الجريدة من الاستمرار في الصدور طوال فترة ظهورها (1919-1956) دون أن تتعرض للمضايقة من قبل الإدارة الاستعمارية، عكس الصحف الوطنية التي كان عمرها قصيرا بسبب القمع الاستعماري المستهدف لها لانتقادها العلني للسياسة الإستعمارية⁷.

لذلك كانت جريدة النجاح ذات أهمية بالغة بالنسبة للقراء الجزائريين في ظل احتكار الصحافة الكولونيالية للساحة الإعلامية بالجزائر، وما كانت تتميز به من تعميم وتزييف

1- أنظر: النجاح، "أخبارنا التلغرافية"، النجاح، العدد 831 (1/4/1930)، ص 1.

2- أنظر: النجاح، "السياسة العامة لمراسل النجاح الخاص بباريس"، النجاح، العدد 1473 (11/08/1933)، ص 1

3- محفوظ تاويزة وعائشة سبيحي، المقال السابق، ص 250

4- أنظر النجاح، "مكتبة النجاح، قائمتها ترسل مجانا لمن يطلبها"، النجاح، العدد 491، (7/9/1927) ص 2

5- محمد ناصر، المرجع السابق، ص 82

6- أبو عبد الله، "صدى النجاح اليومي في المغرب"، النجاح، العدد 632، (24/8/1928)، ص 2

7- محمد ناصر، المرجع السابق، ص 31-47

للحقائق، وتشويه زعماء المقاومة الوطنية، وطمس المقومات الأساسية للشخصية الوطنية، مساهمة بذلك في تنوير الجزائريين وتوعيتهم، واستنهاض هممهم¹، سيما وأنها أظهرت دفاعا مستميتا عن اللغة العربية² والدين الإسلامي³ والمرأة المسلمة⁴، والطفولة الجزائرية⁵ وتعليم الجزائريين⁶، كما أدت دورا هاما في محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر وأضرارها⁷، وطرحت بطريقة أو بأخرى مختلف انشغالات الجزائريين، ومشاكلهم على الإدارة الاستعمارية لعلها تجد الحلول الناجعة لها⁸، وكان على رأسها الظروف المعيشية الضنكة التي مر بها الأهالي خلال فترة عشرينيات وثلاثينيات القرن 20م، فما مدى مصداقية النجاح في معالجة هذه الظروف؟ وما موقفها منها؟

2- السياسة الاستعمارية وتأزم الوضع المعيشي للأهالي الجزائريين من خلال جريدة النجاح (1924-1934):

2.1- غلاء المعيشة: تعد سنة 1924 أشد السنوات قساوة من حيث ظروف المعيشة على الجزائريين الأهالي، من خلال معاناتهم من ارتفاع أسعار المواد الغذائية الضرورية، وعدم قدرتهم على شرائها، بسبب تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية على أسعار الصرف للعملة الأجنبية، وعلى رأسها الفرنك الفرنسي الذي تهاوت قيمته، ما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية⁹، إضافة إلى الإحتكار والمضاربة من طرف التجار المعمرين، واستغلالهم الفاحش للجزائريين الأهالي، وفي هذا الصدد كتبت جريدة النجاح تحت عنوان: "ما بالهم لا يقاومون، غلاء المعاش والمجاعة ضاربة أطنابها والأزمة شديدة"، شهرت من خلاله بسلوك الغش للتجار في مجال صناعة الخبز بقولها: «... يصنع الخبز الخبز، ويبيعه للعموم ناقص الوزن ممزوجا بخليط غير صالح للغذاء، مما يجعل المرض يسري في البلاد، ودليله

1- محفوظ تاويزة، المرجع السابق، ص 71-93

2- عبد الحفيظ الهاشي، "اللغة العربية عندنا"، النجاح، العدد 1527، (1934/01/28)، ص 1

3- عبد الحفيظ الهاشي، "الإسلام لا تعمل فيه الأحلام"، النجاح، العدد 110، (1923/05/11)، ص 1

4- أنظر: محمد المهدي "تعليم الفتاة المسلمة بهذه البلاد"، أعداد: 3791 (1950/3/25)، 3792 (1950/3/29)، 3793 (1950/4/1)

5- انظر على سبيل المثال: عبد الحفيظ الهاشي، "حافظوا على أبنائنا"، النجاح، العدد 841، (1930/01/16)، ص 1

6- انظر عبد الحفيظ الهاشي، "توسيع نطاق التعليم الرسمي، أمر تدعو إليه الضرورة اليوم"، النجاح، العدد 2000، (1937/6/4)، ص 1.

7- عبد الحفيظ الهاشي، "بلية الخمر تهلك الحرث والنسل"، النجاح، العدد 852، (1930/1/29)، ص 1.

8- انظر: النجاح، "الدفاع عن الأهالي"، النجاح، العدد 1184، (1931/07/24)، ص 1.

9- النجاح، العدد 149 (1924/3/5)، ص 1.

الخبز: حلوه سمرة وعليه من علامات الغش ما لا يحتاج إلى دليل يقع غش الخبز، وبالرغم من ذلك فإننا لا نرى معقدا عاملا لقمع وضرب الأيدي عن تلك الأفعال التي تمس الصحة العمومية، وتكسيها وبالا وخطورة. السميد أصبح القنطار منه يساوي 125 فرنكا فصاعدا، فأغلب الناس اليوم غير قادرين على شراء مؤونة شهرين أو ثلاثة أشهر، سيما أصحاب العائلات الكبيرة، ومنذ أن صعد القنطار إلى الدرجة المذكورة لم يسفل الكمية المحسوسة رغما عن شدة التجائنا إلى رجال الدولة واستنهاضهم إلى مصادرة هذا الأمر الذي يقضي إلى الفاقة العمومية بل إلى الهرج العام...»¹.

وفي مقال آخر بعنوان "اشتداد أزمة غلاء المعاش" نشرته النجاح خلال هذه السنة، بين من خلاله صاحبه أضرار الاحتكار وعلاقته المباشرة بارتفاع أسعار المواد المعاشية، وشجب المحتكرين المستوطنين تجار المواد الغذائية، أو انتهازم ظروف الجفاف الذي أضرب بالدرجة الأولى بمحصول الأهالي الجزائريين، بلجوهم- المستوطنون التجار- إلى تخزين المواد الغذائية، ثم يخرجونها إلى السوق بعد ازدياد الطلب عليها، ومن ثمة يقومون برفع أسعارها².

وتحمل النجاح مرة أخرى من خلال مقال آخر لها بعنوان "الأزمة المعاشية، غلاء السميد وإصرار أرباب الرحاوات على الزيادة في السعر" أرباب مطاحن السميد مسؤولية تفاقم حالة الأهالي الجزائريين المعيشية بلجوهم إلى الاحتكار والمضاربة، حيث أشارت لذلك بقولها: «...فقد أصبح أرباب الرحاوات فرحين لما تحكم الله به من هذه الظروف العسرة، فقد بادروا في هذا الأسبوع إلى الإضراب عن البيع، والسعر ناهز المائة وستين فرنكا لقنطار من السميد...، ويعللون أعمالهم هذه بنفاذ مستودعاتهم من الحبوب، وأنهم لا يملكون المقدار الكافي لتوزيعه على العموم إلا ما قل، وما هي إلا فرصة سنحت لأربابهم التي لا يبالون في سبيلها عزل المواد، ولو يبلغ السيل الزبي فإنهم يذهبون لتبرير أعمالهم بفراغ مستودعاتهم من الحبوب، ولكنهم ليسوا بمصدقين فيما قالوا...»³.

1- النجاح، العدد176(1924/09/26)، ص1.

2- النجاح، العدد148(1924/2/29)، ص1.

3- النجاح، العدد167(1924/7/25)، ص1.

ولم تتردد النجاح في تحذير الإدارة الاستعمارية من التداعيات الخطيرة لهذه الظروف المأساوية للأهالي الجزائريين لتجنب الكارثة الصحية البشرية على غرار كارثة سنة 1920 بالأغواط، داعية في الوقت نفسه إلى ضرورة التكفل بانشغالاتهم الاجتماعية: «...وبالجملة يجب السهر على مسألة خطيرة لا ينبغي السكوت عنها، وأن في عام 1920 بما وقع فيه من الموتى في ضواحي الأغواط بسبب الجوع لعبارة بمن اعتبر، فكيف الضعيف اليوم يقدر على تحمل أعباء معيشة عياله والسميد جاوز القنطار منه 160 فرنكا، والخبز بلغ الكيلو منه 1. 25 فرنكا، والأمر لا يزال في ارتفاع وتحرج»¹.

وترى النجاح أنه يتعين على الحكومة الفرنسية مواجهة هذه الظروف الصعبة التي تمر بها الجزائر خلال هذه الفترة ومعالجتها وفق الخطة التالية:

1- العمل على زيادة توريد الحبوب من الخارج حتى يسد الفراغ العظيم الذي تراه اليوم في عالم القوت ولو من أقصى البلدان الخارجية.
2- إسعاف الأمة بمنح القروض حتى ينقشع الهيجان العام الذي قد يتفاقم أمره في البلاد مستقبلا.

3- ضرورة قيام المعمرين بفتح مستودعاتهم من الحبوب المغلقة منذ مدة، وبهذا الموقف يتم قطع خطوة عظيمة في مقاومة المجاعة التي تهدد الجزائريين الأهالي في هذه الفترة.
4- عدم تحديد الأسعار بطريقة جبرية؛ فإن ذلك ما يزيد الطين بلة².

ولم تخف جريدة النجاح انتقاداتها للإدارة الإستعمارية على استمرارها في فرض المغارم على الأهالي العاجزين عن تسديد ديونهم، وعدم تفهمها لظروفهم المأسوية، والزج ببعضهم في السجون، حيث ذكرت في هذا الصدد قائلة: «...؛ فالديون المتخلدة في الذمم من السنة السالفة تستحكم بسببها حلقة أخرى تزيد في الضيق، ضرورة الزمن يقضي بقصور أصحاب الديون على دفع ما في ذممهم، أما الذين يتضررون في سن الخصب فلا تسأل عنهم في هذه السنة؛ فإنهم العاجزون القاصرون، والله هو المتولي الشؤون، ويفعل في عباده ما يشاء. بلغنا من البيضاء أن الضعف سائد بنواحي مسكيانة والبيضاء وباقي تلك الأصقاع،

1- عبد الحفيظ الهاشمي، "الأزمة المعاشية، غلاء السميد"، جريدة النجاح، العدد 167 (1924/7/25)، ص 1

2- عبد الحفيظ الهاشمي، "الأزمة المعاشية، غلاء السميد"، مقال سابق.

وبالرغم من ذلك كله فإن المكلفين بتخليص المغارم هناك قد سلكوا في تخليص مغارم هذه السنة ما سلكوه في السنة الفارطة، ولم يراعوا في ذلك الظروف الحالية التي تستلزم مزيدا من الاهتمام. كفى بالرجل قصورا أن يطالب بأداء المغرم فيمتنع لعجزه، فيساق للسجن فيسكن فيه شهورا غريبا عن أهله وأنجاله، فهل يرضى بذلك لو كان قادرا على أداء ما في ذمته ويقبل بالتمثيل به...¹.

وحذرت النجاح من العواقب الأمنية التي قد تنجر عن استمرار هذه الظروف ومعاناة الجزائريين منها، مشددة على ضرورة تقديم الدعم لهم، لا سيما فئة الفقراء المهددين بخطر المجاعة، وذلك بفتح صناديق الإعانات، وتفعيل دور الجمعيات الخيرية في هذا المجال في جميع أرجاء البلاد، لتلافي تكرار مجاعة الأغواط عام 1920: «... إن العجز إذا كان سائدا تحدث منه أضرار تخل بالأمن العام، ولذلك لا ينبغي التهاون بالمجاعة. فيجب أن تفتح صناديق الإعانات الدولية، وأن تكثر الجمعيات الإحسانية بكل بلاد، حتى تخفف الوطأة نوعا ما...، وبالجمل على كل بلد من بلدان القطر أن يبذل ما في وسعها من العمل لوقاية الفقير من النكبات المستهدفة لها أثناء الشتاء والربيع، كي لا يحدث ما يذكرنا فيما وقع بالأغواط سنة 1920».²

ويظهر أن معاناة الجزائريين الأهالي من المعيشة الضنكة استمرت لغاية مطلع ثلاثينيات القرن 20م، حيث شهدت اشتداد الأزمة المعيشية بشكل مقلق ومريب، بسبب ارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية، وعلى رأسها الزيت والخبز والفحم، "فالضعيف ما يصنع أمام القوات وسعر الكيلو الخبز فرنكان وثلاثون سانتيمًا، واللحم يُباع بسبع فرنكات، والفحم بسبعين فرنكا للقنطار، وليترة الزيت تجاوز العشر فرنكات. ما يصنع المسكين إزاء هذا الغلاء الذي لم تكن تتصوره العقول ولا تسبغه الحال أن الدرهم عزيز والخطب ليس سهل"³.

وفي مقال آخر نشرته سنة 1930 تحت عنوان "شكوى الجهل والفقر وفي إمكاننا مقاومتهما" نهت من- خلاله إلى تأزم الوضع الاجتماعي للشعب الجزائري⁴، وأفصحت مرة

1- عبد الحفيظ الهاشي، "أزمة المعاش، بمزيد الإسعاف"، جريدة النجاح، العدد 170 (1924/8/15)، ص1.

2- عبد الحفيظ الهاشي، "أزمة المعاش، بمزيد الإسعاف"، مقال سابق.

3- النجاح، العدد321، (1926/7/23)، ص1.

4- النجاح، العدد1071 (1930/11/7)، ص1.

أخرى عن تأسفها على الظروف المزرية للفقراء الأهالي من خلال المقال الذي نشرته خلال هذه السنة بعنوان "ضعفاؤنا تتوجع أمامنا وقلوبنا عليهم قاسية"¹.

ونددت بكل جرأة في سنة 1933 بغلاء المعيشة من خلال ارتفاع أسعار المواد الغذائية الضرورية، بسبب الاحتكار والمضاربة والغش في المأكولات والكيل في الميزان، وغياب المراقبة من طرف شرطة المراقبة التي حملتها مسؤولية هذه الظروف الفوضوية، التي ذهب ضحيتها الأهالي الجزائريون بالدرجة الأولى لموقعهم الضعيف مقارنة مع المستوطنين المحميين من قبل الإدارة الاستعمارية².

وحرصت الجريدة على مواكبة هذا الموضوع، محاولة منها التأكيد على استفحال المعاناة المعيشية للأهالي الجزائريين في سنة 1934، من خلال المقالات الافتتاحية التي ركزت عليها الجريدة، كرسالة موجهة للإدارة الإستعمارية قصد تحسيسها بمعاناة الجزائريين، ومن ثمة التأثير عليها لعلها تمد يد المساعدة لهم³.

2. 2- استفحال ظاهرتي الفقر والبطالة: أشارت جريدة النجاح ضمن أعدادها الصادرة خلال منتصف عشرينيات القرن الماضي إلى معاناة الأهالي الجزائريين من البطالة في أكثر من مرة، معتبرة إياها من أشد الفترات العصيبة في حياة الجزائريين الاجتماعية⁴.

وعبر مولود الحافظي الأزهري- أحد كتّاب الجريدة- سنة 1926 عن تحسره حيال الواقع الإجتماعي الكارثي الذي آل إليه الأهالي الجزائريون، بسبب السياسة الإستعمارية الجائرة المفروضة عليهم، مشيراً إلى إقدام بعضهم على التفكير في الهجرة إلى فرنسا بشتى الوسائل والطرق- في ظل الحظر المفروض عليها من قبل السلطات الفرنسية- "بحكم الاضطراب إلى الإنفاق على عائلاتهم وقلة العمل بالجزائر، وانخفاض الأجور الموجودة التي لا تفي بالحاجيات الضرورية، فضلاً عن أداء مطالب الحكومة، والديون التي أثقلت كواهلهم"⁵.

1- عبد الحفيظ الهاشي، "الأزمة والإحتكار"، جريدة النجاح، العدد 1411 (1933/2/25)، ص 1.

2- أنظر على سبيل المثال: عبد الحفيظ الهاشي، "فشو البطالة"، جريدة النجاح، العدد 1522 (1934/1/7)، ص 1.

3- النجاح، العدد 321، (1926/7/23)، ص 1.

4- أنظر على سبيل المثال: افتتاحية العدد 218 (1925/7/24)، والعدد 301 (1926/5/27).

5- النجاح، العدد 301 (1926/5/27)، ص 2.

ومن المقالات الملفتة للإنتباه التي تصدرت افتتاحيات النجاح سنة 1930، مقال بعنوان "كثرة الإزدحام على المقاهي دليل على فشو البطالة"، بين صاحبه (عبد الحفيظ الهاشمي) من خلاله الانتشار الرهيب لظاهرة البطالة في أوساط الجزائريين الأهالي، مبديا تأسفه على امتلاء المقاهي بهذه الظاهرة، بقوله: «... وإذا مررت بأنهجنا وعلى حوماتنا وعلى مقاهينا تجد السواد الأكبر مشغولا بالقييل والقال، والعكوف على الميسر بالمقاهي، والمجادلات الفارغة؛ فيدرك في نفس الوقت العجب، ومن هؤلاء وتحترق في أمرهم، وفي أسباب أرزاقهم وأفكارهم التي لم تتجه إلى ما هو صالح ونافع في هذه الحياة...»¹.

وحذر الكاتب في الوقت نفسه من المخاطر الناجمة عن هذه الظاهرة الاجتماعية السلبية، كانتشار ظاهرة التسول والسرقة، وعدم استقرار البلاد أمنيا واجتماعيا، بقوله: «... البطالة في الأمة فاشية جدا؛ فلو توجهت يوما إلى أمكنة الزهدة، وعرجت على المقاهي العربية لقلت كيف تتصور لهؤلاء عائلات، وكيف تسنى لهم وهم مضطرون إلى الإنفاق أن يجدوا لوازمه، وقد جعل الله لكل شيء سببا، فيا للعجب من عقول مغفلة لم تفكر في ما هو لازم ضروري. كلنا يجزم أن الرجل إذا لم تكن مهمته يكافح بها نوائب هذا الزمن، وتراه مضطجعا على سجاجيد المقاهي بياض يومه لاشك أنه معتمد على وجه من وجوه السرقة والجناية أو الاختلاس...»².

ووجه دعوته للحكومة الفرنسية مطالبا إياها بوجوب معالجة هذه الظاهرة الاجتماعية المريبة، بقوله: «فنحن نرجو من الحكومة أن تلفت أنظارها إلى مسألة البطالة وفشوها بين الأهالي بصفة أوجبت شقاوتهم ومن دون ريب، إن قلة العمل ينتج قلة الأمن، ويا حبذا لو توجد لهم سبيلا للعمل، أصبحنا نرى كثيرا من البطالين يشكون قلة العمل بدعوى أنهم لا يجدون أين يخدمون»³.

ولم يتوان الكاتب عن شجب ظاهرة الفقر التي أصبحت تهدد حياة الجزائريين واستقرارهم الاجتماعي في العمق على مختلف فئاتهم بقوله: «... وأكثرية في العائلات تدمرهم الفاقة، وتمثل بهم تمثيل العنيد الجبار، وقد تجد ذلك على مقربة منك، ولكن الحياء يصد

1- النجاح العدد 850 (1930/1/26) ، ص 1.

2- النجاح العدد 850 (1930/1/26) ، ص 1.

3- النجاح العدد 850 (1930/1/26) ، ص 1.

أصحاب الهمم عن إراقة ماء المحيا...، وهكذا أمامك الشحاذين يسألون الناس إلحاحا، ومناظرهم تبعث في الأفئدة أشجانا. أولئك الأبناء الصغار وأولئك العجزة هم عنوان الضعف الشعبي وفاقته...¹.

ورأت النجاح من خلال أحد مقالاتها سنة 1934، تحت عنوان "تفاقم البطالة" أن الأسباب الجوهرية للبطالة تكمن في احتكار اليد العاملة الأجنبية لفرص العمل بالجزائر، ومزاحمة الأهالي الجزائريين في هذا المجال، وعدم مبالاة الإدارة الإستعمارية بأوضاعهم الاجتماعية، وذلك بحرمانهم من الأفضلية في العمل والأجر ببلادهم على غرار ما هو معمول به في فرنسا: «... وحقيقة أن البطالة فشلت، وعلى الأخص بين الأهالي، ويمكننا أن نعلل ذلك عن تأثير الحالة الاقتصادية العالمية، ولكن هناك سبب آخر زاد في الطنبور نقمة، وهو ظهور اليد العاملة بالوطن من الأجناس الأخرى، فأما ترى الجاليات مثل الإيطاليين وغيرهم يزاحمون عمال الوطن مزاحمة كبرى...، وأن المسألة لم يهتم بها من هذا الجانب بل تركت المسألة فوضى بدون أن يتخذ لها ضابط مثل ما هو واقع في بلاد فرنسا من أن العمال غير الوطنيين لا يسوغ استخدامهم بنسبة عشرة في المائة؛ فلو كان هذا الضابط معمولاً به في بلاد الجزائر لما بلغت البطالة إلى هذه الدرجة الفاحشة التي ازداد بها الكساد العام»².

وصورت الجريدة حجم معاناة الجزائريين من البطالة لاسيما خلال شهر رمضان الكريم، خاصة في عمالة قسنطينة، بقولها: «... من معيقات الأزمة أن ينفذ العامل يديه من العمل، ويتزوي إلى البطالة خضوعا لما قدر له من فقدان وجوه الشغل...؛ فتراه مضطرا إلى العمل بأبخس الأثمان...، ولكن هيهات أن يجد ما يشتغل به، والبطالة اعتادت أن تكثر في فصل الشتاء... الذي يرجع إلى داره عند الغروب صفر اليدين خاوي الوفاض، فينطلق صوت مدفع الإفطار ولا تجد عائلة ما تسد به رمقها...، فعلى البلديات عموما وبلدية قسنطينة خصوصا أن تحدث وجوه الشغل للبطالين في أقرب وقت تلافيا للأخطار التي حافت بالعمل»³.

1- النجاح العدد 843 (18/1/1930)، ص 1.

2- النجاح العدد 1533 (21/2/1930)، ص 1.

3- عبد الحفيظ الهاشمي، "فشو البطالة"، مقال سابق، ص 1.

2.3- المجاعة وتدهور المستوى الصحي للأهالي: قامت جريدة النجاح في سنة 1924 بنشر مقال للكاتب الفرنسي الشهير جون ميليا الذي كتبه بجريدة "الصباح" الباريسية، وصف فيه الحالة الاجتماعية والصحية المأسوية للجزائريين الأهالي، لاسيما الأطفال الذين فقدوا أولياءهم من جراء المجاعة التي عرفتها البلاد عامة والصحراء خاصة، نكتطف مما جاء فيه ما يلي: «... رأينا منذ ثلاث سنوات أن المجاعة والحمى التيفوئيدية كانتا سببا لموت خلق كثير من سكان الصحراء الجزائرية، وكانت الإدارة إذ ذاك برهنت على ضعفها وخورها...، ذهبت المجاعة لكن نتائجها لازالت قائمة؛ فقد جلنا بالصحراء الجزائرية في الأشهر الماضية، ورأينا أن الفقر والحزن والأسف لازال يظهر على وجه القوم...، ولازالت هذه المجاعة بمكانها، ولا شك أنها تمكث به ما دامت حالتها لم تتحسن. هم صبيان بين السادسة والرابعة عشر في العمر مات أبؤهم وجميع أقاربهم إثر المجاعة والحمى التيفوئيدية...، يأتون جماعات جماعات أمام الحان راجين من السواح الذين هم أكرم وأرحم من حكامنا أن يتصدقوا عليهم بشيء أو بقطعة خبز...»¹.

وعبرت النجاح عن قلقها إزاء تدهور الوضع الصحي للأطفال الأهالي الجزائريين سنة 1928، من خلال انتشار الأمراض الخطيرة التي أصبحت تهدد حياتهم، على رأسها مرض السل، مطالبة بضرورة أخذ الحيطة والحذر، موجبة نداء استغاثة للجمعيات الخيرية من أجل توفير الوسائل والإمكانات اللازمة لمحاربة هذا الداء²، وزيادة على معاناة الجزائريين من الأمراض والمجاعة والجفاف، اجتياح الجراد البلاد، لاسيما مناطق الشرق الجزائري خلال سنوات: 1924³، 1929⁴، 1930⁵، الذي أتلّف المحاصيل الزراعية وأهلك المواشي: «اجتاح الجراد- مناطق هامة من البلاد حتى في سنة 1930 مثل واحة باتنة وبوسعادة وسيدي عيسى وعين بوسيف والصحراء ومسيلة...؛ فأكل ما على وجه الأرض من النبات، وقال: هل من مزيد، وتراه غدا نزل ساحة قوم يسوء حيالهم فيجمعون أمرهم ويخرجون لقتاله

1- النجاح، العدد162، (13/6/1924) ص1.

2- النجاح، "حاربوا داء السل"، جريدة النجاح، العدد668(26/7/1928) ص1.

3- النجاح، العدد167(25/7/1924)، ص1

4- أنظر: النجاح، العدد738(4/9/1929)، ص1

5- أنظر: النجاح، "جيوش الجراد"، جريدة النجاح، العدد891(21/3/1930)، ص1

ومبارزته بالحرق والطرده...، وقد علمنا من مصادر موثوق بها أن كثيرا ممن أصيبوا بذلك أصبحوا لا يملكون قوتهم لموت مواشيهم وإتلاف مزرعاتهم...¹.

4.2- خروج الأطفال للعمل وعزوفهم عن التعليم: تحسرت مرة أخرى النجاح على ظاهرة اشتغال أطفال الجزائر في الأعمال الوضيعة تحت تأثير الأزمة الاقتصادية، مضطرين في ذلك لإعالة عوائلهم، حيث كتبت في هذا الصدد: «... ومظاهر هذا الضعف تتجلى للعيان حينما يرى المرء أبناء صغار في الطريق تلوج عليهم آيات الذكاء والنبيل يحملون صناديق تنظيف الأحذية وهم أبناء الضعفاء...»².

وأبدت تأسفها على ظاهرة استغلال أطفال الجزائر في الأعمال الشاقة مقابل حصولهم على أجور جد زهيدة من قبل المستثمرين الأوروبيين بالجزائر، موجة عتابا شديد اللهجة لأولياءهم بقولها: «... خدم عامة النهار وسجاية الليل فلم يكفها في المؤونة، رفع الصخرة العظيمة لكي يأخذ كمية من المال فيصرفها في حاجاته وحاجة عائلته لكنها لم تقم له حتى بشراء الملح والدخان. أعاد الكرة للدخول إلى شانطي البناء رجاء أن يكون بناء فنا فيأخذ الستين والسبعين فرنكا في النهار ليسد بها رمق إخوانه وعائلته، ويتخذ هذه الحرفة الشريفة عدة لحياته وحياة أولاده، لكنه بعدما باشر العمل خاب رجاؤه، وتبدل باله لأنهم حملوه ما لا يطيق أبناء فيزوف (الطالبيان) برفع الصخر من الطابق الأسفل إلى الطابق الأعلى. علموه كيف يضرب بالمطرقة الحجر فيفتت إربا ثم يطبخه بالرمل. علموه رفع المعول فيحفز بالفأس حتى يصل إلى تخوم الأرض، هذا ما علمه أبناء الطالبيان من ضروب الشقاء والنكال، ياتيه يوم القبض (السبت) الطلياني يأخذ الستين والسبعين في اليوم وابنك المسكين يأخذ سبع فرنكات في اليوم...؛ فيم ينفق هاته الفرينكات التي هزقت فيها دمه وضحي في سبيلها صحته وأنفس الأوقات لينفقها على العيال والعائلة يلزمها أكثر من ألف في الشهر...»³.

ونجد في إحدى افتتاحيات الجريدة مقالا بعنوان "أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض الجبل يحصدهم والكسل يفنهم"، أبدى كاتبه امتعاضه من ممارسة أطفال الأهالي لأعمال مهينة لكرامة الجزائريين، وتسولهم في الشوارع بحثا عن القوت بشق الطرق، وعزوف الكثير

1- عبد الحفيظ الهاشي، "وجوب مكافحة الجراد"، النجاح العدد870 (1930/2/21)، ص 1

2- عبد الحفيظ الهاشي، "ضعفنا نتوجع أمامنا وقلوبنا عليهم قاسية"، النجاح العدد843 (1930/1/18)، ص 1

3- النجاح، العدد804 (1929/102/25)، ص1.

منهم عن التعليم، مخاطبا أولياءهم، بقوله: «... هيا نذهب إلى الطرقات العامة؛ فنجد أكبادنا التي هي أعز علينا من النفس بين جنينا نردهم حاملين للصناديق فوق الظهور يمسحون أحذية الفرنسي واليهودي والطلاني والعربي. نردهم في الليالي القمرية يمشون قمار، ثم بعدها يسرفون نصف الليل يذهبون إلى المزابل والمحال العفنة فينامون وكيف يصبحون؟ يصبحون بوجوه عليها غبرة ترهقها قفرة...، وإلى المدارس فنجد النزر القليل ولا يكفي للمقابلة مع أبناء غيرنا فضلا عن التحصيل والتفوق عليهم في مضمار الحياة...، وهيا نذهب إلى شوارعنا فنجد فلذات أكبادنا مكدسة بلا عقول نيرة ولا عمل يلهمهم عن اللعب ولا همة شماء تعلو بهم إلى أوج الكمال وتهيمهم لمصاف الرجال...»¹.

وأبدت النجاح عدم رضاها عن أوضاع الجزائريين التعليمية خلال هذه الفترة، على رأسها ظاهرة عزوف الجزائريين عن التعليم، بسبب ظروفهم المعيشية المأسوية، موجهة نداءاتها إلى العائلات الجزائرية داعية إياها إلى الحرص على تعليم أبنائها وتربيتهم، مبرزة في الوقت نفسه أهمية التعليم وأثره على مستقبل الأبناء، حيث أفردت لهذا الموضوع العديد من المقالات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "الأمة والتعليم"²، "علموا الأبناء"³، "التعليم أساس تربية الطفل وقوام حياته"⁴، "التعليم والتعليم"⁵، "التعليم أساس تربية الطفل وقوام حياته"⁶.

2- الحلول العملية المقترحة من طرف النجاح لتحسين ظروف معيشة الأهالي الجزائريين: أكدت جريدة النجاح خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي في أكثر من مناسبة بأنه يمكن للجزائريين مواجهة الأزمة الاقتصادية، وتحسين ظروفهم المعيشية عن طريق "المبادرة إلى العمل، والاجتهاد في طرق أبواب الاستزاق والمعاش"⁷، مؤكدة في هذا

1- النجاح العدد785 (1929/9/11)، ص 1.

2- النجاح العدد537 (1927/12/30)، ص 1.

3- نفسه.

4- النجاح العدد639 (1928/9/16)، ص 1.

5- النجاح العدد1334 (1931/7/27)، ص 1.

6- نفسه.

7- النجاح العدد332 (1926/8/14)، ص 1.

الصدد على وجوب الاهتمام بالحرف والصناعات التقليدية¹، وإنشاء شركات تجارية² وفلاحية برؤوس أموال جزائرية لخلق التعاون والتكامل فيما بينهم، ومن ثمة التخلص من قيود معاملات البنوك والمصارف الربوية الفرنسية الاستعمارية، لا سيما مشكل فوائد القروض والديون الذي ظل يؤرق حياة الفلاحين الجزائريين³.

ودعت أيضا إلى وجوب محاربة الكسل، وفي هذا الصدد دافعت عن هجرة الجزائريين إلى فرنسا بحثا عن لقمة العيش ما دامت فرص الشغل معدومة ببلادهم، وطالبت الإدارة الفرنسية برفع القيود على الهجرة، حيث نشرت في هذا الصدد سنة 1925 مطلب السيد بن باديس محمد المصطفى نائب قسنطينة، والشريف سيسبان نائب باتنة، وبموافقة اللجنة النيابية المالية الأهلية (القسم العربي) المرفوع إلى الوالي العام للجزائر، المتضمن ترك الحرية للجزائريين للهجرة نحو فرنسا بحثا عن العمل⁴.

وأكدت أيضا على ضرورة تجنب الإسراف الذي عدته "أبو البلايا"⁵، حيث جاء في إحدى مقالاتها: "الإسراف هو العدو الألد الكاسح بعد الفقر، وإذا انبتت مخالفته في أمة مستسلمة لعاطفة الهوى والشهوة رنق صفو عيشها، وأوردها موارد الشقاء، وكان ذلك سببا في انحلال الروابط الاجتماعية، وتضعف أركان الأسرة"⁶، وظل الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي- صاحب الجريدة- يدعو إلى ضرورة العدول عن التبذير طوال فترة الأزمة الاقتصادية التي شهدتها البلاد والعالم ككل⁷.

وتفعيل دور العمل الخيري من طرف "جمعيات الخير والإحسان" لإعانة العائلات الفقيرة والمعوزة واليتامى⁸، واقترحت إنشاء مؤسسة صناعية لانتشال الأراذل والأيتام من شر الفقر المدقع "يتعلم فيها الفريقان (الذكرا والإناث) صناعة شريفة كل حسب مواهبه العقلية

1- أنظر على سبيل المثال: العدد 452 (1927/6/2)، ص 1.

2- أنظر على سبيل المثال العدد 340 (1926/9/5)، ص 1.

3- أنظر على سبيل المثال: العدد 449 (1927/5/27)، والعدد 170 (1924/8/15).

4- أنظر على سبيل المثال العدد 218 (1925/7/24)، ص 1.

5- النجاح، العدد 841 (1930/1/16)، ص 1.

6- نفسه.

7- النجاح العدد 1521 (1934/1/5)، ص 1.

8- النجاح العدد 1538 (1934/2/28)، ص 1.

وجهوده البدنية، وبمثل هذا العمل يأمنون غائلة المجاعة، ويصبحون بفضل صناعتهم عاملين على ترقية المجتمع، والأخذ بأيدي غيرهم من المستضعفين والمساكين الذين لا يستطيعون حيلة يتغلبون بها على معاكسة الدهر إلا أن يؤخذ بأيديهم"¹.

كما ركزت في اهتماماتها بهذا الموضوع على أهمية التعليم بالنسبة للأطفال للحيلولة دون وقوعهم فريسة الإستغلال في العمالة²، وللجهل³، والتشرد في الشوارع والانحراف الخلقي⁴، مؤكدة على أهمية التعليم والتربية في توجيه هذه الشريحة نحو مستقبل أفضل، وفي هذا الصدد كتب مامي إسماعيل- أحد كتاب الجريدة- يوجه دعوته للأولياء قائلا: "فعلموا أولادكم التعليم العربي الذي يصدهم عن المخازي ويهذبهم، ويكوّن منهم في المجتمع كتلة صالحة ذات دين وقومية وأخلاق عربية"⁵.

وطالبت من الإدارة الاستعمارية القيام بواجبها حيال الأهالي الجزائريين المعوزين والفقراء، وذلك بمساعدتهم ماديا واجتماعيا على تجاوز ظروف حياتهم الصعبة خلال هذه الفترة، لاسيما رجال البلديات الذين تقع على عاتقهم المسؤولية، "الذين يتولون أمر معونة فقراء المدن والأحواز، وإخراج الإعانات والصدقات لهم من الصناديق المعدة لذلك"⁶، وبوضع حد لمعاملات البنوك الاستغلالية إزاء الأهالي بقولها: "تنبيه المتصرفين الذين يعيشون فسادا في استخلاص المغارم من ضعفاء الدواوير العاجزين عن الأداء؛ فإن الضغط عليهم مما تزداد به حالة العسر العمومية، ويفقد معه الأمن العام؛ فلقد مثلوا بالأمة تمثيلا تأباه الإنسانية وتلطف به الهيئة"⁷.

خاتمة: من خلال معالجتنا للموضوع توصلنا إلى الاستنتاجات والحقائق التاريخية الآتية:
- تشهير جريدة النجاح بدور التجار المستوطنين في استغلالهم الفاحش للجزائريين الأهالي وتفاقم أوضاعهم الإجتماعية، من خلال احتكارهم للمواد الغذائية الإستهلاكية الإستراتيجية

1- النجاح العدد 1227 (1931/11/4) ، ص1.

2- النجاح العدد 804 (1929/10/25) ، ص1.

3- عبد الحفيظ الهاشمي ، "وعلموا الأولاد أيضا"، النجاح العدد 641 (1928/90/21) ، ص1.

4- النجاح العدد 759 (1929/7/8) ، ص1.

5- مامي إسماعيل، "التعليم أساس تربية الطفل وقوام حياته في المجتمع"، جريدة النجاح العدد 1334 (1931/7/27).

6- النجاح، "يعوزهم المأوى فيقتلهم البرد"، النجاح، العدد 249، (1931/12/25) ، ص1.

7- النجاح العدد 176 (1924/9/26) ، ص1.

كالقمح والسميد والزيت الغذائية، ولجوئهم للمضاربة بهدف مضاعفة أسعارها، ومعاملات بنوكهم الربوية، الأمر الذي انعكس سلبا على المستوى المعيشي للجزائريين.

- جرأة النجاح في انتقاد الإدارة الإستعمارية الفرنسية التي حملتها جزءا كبيرا من مسؤولية الواقع المعيشي الكارثي الذي آل إليه الشعب الجزائري في هذه الفترة، بسبب تقاعسها عن التكفل بانشغالاته الاجتماعية والصحية، وهذا في الوقت الذي تمتع فيه المستوطنون بكل الشروط الضرورية للحياة.

- التضامن المنقطع النظير لجريدة النجاح مع معاناة الجزائريين، ومحاولتها الرفع من معنوياتهم بدعوتهم إلى العمل، والتعاون والتكامل فيما بينهم للاستثمار في المشاريع الفلاحية والتجارية، والتضامن فيما بينهم لمحاربة الفقر والأمراض عن طريق تفعيل عمل الجمعيات الخيرية، وتشجيع تعليم الأطفال حتى لا يقعوا فريسة لاستغلال التجار والرأسماليين المستوطنين.

- يمكن القول أن جريدة النجاح أبلت بلاء حسنا في تحسيس السلطات الفرنسية الإستعمارية بظروف الجزائريين المعيشية الضنكة من خلال رسالتها الإعلامية التي كانت كلها دعوة للإهتمام بهذا الموضوع، والتحذير من المخاطر الاجتماعية والصحية والأمنية الناجمة عن معاناة الجزائريين خلال هذه الفترة، وهذا في الوقت الذي كانت فيه جل الصحف الإصلاحية والوطنية تمتنع بطريقة أو بأخرى عن الخوض في مثل هذه المواضيع، خوفا من سيف الإدارة الإستعمارية المسلط عليها. وبدورها لم تكن الصحف الإستعمارية بشقيها الرسمي والإستيطاني مبالية بهذا الموضوع، لنظرتها العنصرية والمتطرفة حيال الأهالي الجزائريين، بقدر ما كان يهمها في المقام الأول والأوحد حماية مصالح المستوطنين والدفاع عن الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر.

- يظهر أن جريدة النجاح كانت موضوعية إلى حد ما في معالجتها لظروف الجزائريين المعيشية الضنكة خلال هذه الفترة، كما تعد من أهم الجرائد المصدريّة المحلية لإعادة تدوين التاريخ الاجتماعي المعاصر للجزائر من جهة أخرى.